العدد 2287 - السنة الثامنة
الإثنين 28 ذي الحجة 1436 - الموافق 12 اكتوبر 2015
Monday 12 October 2015 - No.2287 - 8th Year

إعداد : ياسر السيد

تظهر انعكاساتها على الفرد ومن ثم المجتمع بأثره

دور القيم الإسلامية .. في بناء شخصية المسلم

- أول شيء تثمره في بناء الإنسان تقوية صلته بالله عز وجل إلى الدرجة التي تجعله يراقبه بالسر والعلن
- الشباب يكون في حاجة إلى كثير من التروي والتحلي بالصبر والاتزان في اتخاذ المواقف
- حصادها في الشخصية لا يخص جانبًا من جوانب النفس دون الأخرى بل إنه ليهيمن عليها حتى لا يدع دقيقة
- المنهج التربوي الإسلامي كيان مترابط الأجزاء تتشابك فيه العقيدة مع العبادات وهذه مع الأخلاق والكل يعطينا تلك الثمرة الطيبة التي هي الإنسان المؤمن
- الفرد هو الأساس في ذلك التغيير المجتمعي مصداقًا لقوله تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»
- النظرة المادية فجرت في الإنسان طاقاته بإنتاج وتكديس المنتجات الذي ألقته داخل أتون التنافس المحموم عليها

لا شك أن التصور الذي يحمله الإنسان، ونظام القيم الذي يرتبط به، يترك أثره في سلوكه سلبًا أو إيجابًا، وينعكس ذلك الأثر -بطبيعة الحال- على سير المجتمع وبناء الحضارة برمته.. فما هي آثار القيم الإسلامية في بناء الشخصية وبناء المجتمع

أ- بيان آثار القيم التربوية الإسلامية في الشخصية الإنسانية.
ب- بيان ذلك الأثر في بناء المجتمع.

(أ) آثار القيم التربوية الإسلامية في الشخصية الإنسانية:

تعريف الشخصية: عرف بعضهم الشخصية: (بأنها وحدة متكاملة الصفات والمميزات، الجسمية والعقلية والاجتماعية والمزاجية التي تبدو في التعامل الاجتماعي للفرد، والتي تميزه عن غيره من الأفراد تمييزًا واضحًا، فهي تشمل دوافع الفرد وعواطفه وميوله واهتماماته وسماته الخلقية وآراءه ومعتقداته، كما تشمل عاداته الاجتماعية وذكاءه ومواهبه الخاصة ومعلوماته وما يتخذه من أهداف ومثل وقيم اجتماعية)(1). وقد عرفت مجلة علم النفس (المجلد الأول، العدد الأول) الشخصية Personnality، بأنها: (نظام متكامل من مجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية النزوعية والإدراكية التي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزًا بينًا) (2).

بتأملنا لهذين التعريفين يتبين لنا أنهما يرتكزان على البعد الذاتي الفردي الذي يجعل كل فرد من الأفراد في إطار مجتمع معين يتميز عن غيره من الأفراد في مجموعة من السمات والخصائص المتصلة بمختلف جوانب الشخصية.. والذي أريد أن أبينه هنا في حديثي عن أثر القيم التربوية في بناء الشخصية، هو تلك الخصائص العامة التي يصنعها الإسلام بطبيعة الفلسفة التي يقدمها للإنسان، والقيم والتي يدخلها إلى بنائه النفسي، بحيث كل فرد من أفراد المسلمين مهما تكن خصائصه، الوراثية الجسمية، البيولوجية والفيزيولوجية، فإنه يأخذ حظه من الآثار التي تولدها التربية الإسلامية في شخصيته، والتي يصبح بفضلها كائنًا يجمعه قاسم مشترك مع غيره من الأفراد داخل نفس المجتمع.

إن أول شيء تثمره التربية الإسلامية في البناء الشخصي للإنسان المسلم هو تقوية صلته بالله عز وجل، إلى الدرجة التي تجعله يراقبه في السر والعلن، في كل حركاته وسكناته، فهو لا يقدم على شيء إلا وهو يراعي حرمة الله ويرجو له وقارًا.. ومعنى ذلك أن المسلم في علاقته بربه، يستشعر الخشية والخوف منه، في نفس الوقت الذي يتوجه إليه بالرجاء.. وذلك الخوف وهذا الرجاء يملأن قلبه بشعور عارم من التحرر من جميع المخاوف، لأنه يشعر بقوة أن الله وحده هو مالك أمره ومقرر مصيره، وإليه يرجع الأمر كله، هو الذي يملك تبارك اسمه أن يضره وأن ينفعه، أما غيره فأسباب عرضية ليس لها من الأمر شيء، وهكذا فإن المسلم الذي يتشبع بقيم الإسلام يتحرر من الشعور بالخوف على الحياة، أو الخوف على الرزق، أو الخوف على المكانة والمركز، فالحياة بيد الله، ليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) (التوبة : 51)(3).

وهنا، نؤكد على أن هذه الثمار الطيبة للقيمة الإيمانية، رد قاطع على من يخوضون في الأمور بغير علم ولا كتاب منير، فيدعون أن أسلوب الدين الإسلامي في زرع الخوف من الله ومن الحساب في الآخرة يتعارض مع بناء الشخصية الحرة النامية المستقلة. فهؤلاء الأشخاص ينكرون ضرورة توفر عنصر الخوف في التربية، لارتباط ذلك بطبيعة الإنسان. (وإذا كان لا بد من الخوف، فليكن ممن بيده ملكوت كل شيء، ولتسد أبواب الخوف بعد ذلك) (4).

(وليس هذا ما يقرره المؤمنون بالدين فحسب، بل هذا ما يعترف به المنصفون من المتدينين والمتكرين على السواء. فمن الملحدين من يرى الدين خرافة، ولكن الخرافة لا تستقيم بدونه (...) ويقول الأديب الفرنسي الشهير «فولتير» ساخرًا: لم تشككون في الله. ولولاه لخانتني زوجتي وسرقني خادمي! ويقول ثالث: إني لا أعتقد في وجود جهنم، ولكن أعتقد أن الفكرة عنها قد باعدت بين كثير من الناس، وبين ارتكاب الشر) (5).

إن من الآثار الواضحة لصلة الإنسان بربه، ذلك التركيز لفكر الإنسان وجهوده وطاقاته حول محور واحد هو الولاء لله ولرسوله وملة الإسلام، فهذا التركيز هو الدرع الواقي من التشتت والانشطار الذي يضرب الذات بعنف في غياب الإيمان بالله. وتزداد المسألة وضوحًا إذا أخذنا بعين الاعتبار خصائص مرحلة الشباب، التي يفيض فيها الأفراد حيوية وعنفوانًا، مما يولد لديهم ميلا جارفًا إلى الاندفاع والانفعال والمجازفة، ومن هنا فهؤلاء الشباب في حاجة إلى كثير من التروي والتحلي بالصبر والاتزان في اتخاذ المواقف(6).

وإذا كانت القيم التربوية الإسلامية وعلى رأسها القيمة الإيمانية، تترك أثرها في النفس والجسم، طمأنينة وسكينة، فإنها في ترابط عضوي مع تلك الآثار، تخلف أثرها الواضح في عقل الإنسان المسلم بفضل ذلك النسيج المحكم من الحقائق والتشريعات وأنماط السلوك التي يتصل بها كيان المسلم. يقول د. عماد الدين خليل مشيرًا إلى ذلك التحول النوعي الذي طرأ على عقل المسلم لدى اتصاله بالقرآن: إن (نسيج القرآن الكريم نفسه، ومعطياته المعجزة، من بدئها حتى منتهاها، في مجال العقيدة والتشريع والسلوك والحقائق العلمية، تمثل نسقًا من المعطيات المعرفية كانت كفيلة، بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها، أن تهز عقل الإنسان وأن تفجر ينابيعه وطاقاته، وأن تخلق في تركيبه خاصية التشوق المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء) (7).

وفي صدد تحليل العلاقة بين العقائد والأمزجة العقلية للناس، يصنف د. محمد سلامة العقائد إلى عقائد دينية وغير دينية، كل منها يؤدي إلى تشكيل نمط معين من الأمزجة، ثم يخص العقيدة الإسلامية بالتحليل قائلا: (فالعقيدة الدينية الإسلامية مثلا، يصاحبها المزاج المتقائل، الذي يعترف للفرد بكل حقوقه في الحياة، ويطالبه بالسعي لتأكيد الذات. ولهذا فهو مزاج يدفع للنشاط والعمل، كما يطالب الشخص بالسعي نحو المعرفة لإدراك الكون من حوله، وتحديد دوره ووظيفته في هذا الكون. وهكذا فالوعي في العقيدة الدينية وعي شمولي، يقوم على إدراك الذات والوعي بالكون كله. وهو في نفس الوقت وعي تقدمي يطالب بالتغيير والإصلاح عن طريق الفهم والبحث والابتكار والاختراع، ولذا فالإنسان في العقيدة الإسلامية طاقة حيوية مؤثرة، وليس كمًا سلبيًا) (8).

وهذه الخصائص الشخصية الممتازة، هي وحدها التي تفسر سر ذلك الانطلاق الهائل الذي حققه الإنسان المسلم في كل ميدان من ميادين الحياة العلمية والإنتاجية، وتفسر لنا مدى الالتزام بمبدأ الإتقان في العمل، والحرص على اجتناب قبائح النفس ورذائل السلوك.

إن أثر القيم الإسلامية في الشخصية لا يخص، كما سبقت الإشارة إليه، جانبًا من جوانب النفس دون الأخرى، بل إنه ليهيمن عليها حتى لا يدع دقيقة من دقائقها، إن تلك القيم الشاملة لا تجعل المسلم صدقًا في معاملاته وممارساته الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية، متعاونًا فيها على البر والتقوى، عفيفًا معتدلا في تعامله معها وحسب، ولكنها لتنفذ إلى أعماق نفسه فتغرس فيها رهافة في الحس وشفافية في الذوق والضمير.. (قال البخاري في سبب نزول قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) (الحجرات : 2): كاد الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم ركب تميم في السنة التاسعة للهجرة. وقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمر عليهم رجلاً منهم، فأشار أحدهما بتامير الأقرع بن حابس، وأشار الآخر بتامير القعقاع بن معبد. وفي بعض الروايات أن أبا بكر قال لعمر: ما أردت إلا خلافي! قال عمر: ما أردت خلافك! وارتفعت أصواتهما، فنزلت الآيات.. فلما أخذا ذلك الدرس وعياه، ولم يعودا يتحدثان في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا السرار أو أخا السرار) (9). (وقد روي أن أبا بكر وعمر بعد أن انتهيا وأعلنا تأديبهما في القول مع رسول الله صلى الله عليه و سلم نزل قول الله سبحانه: (إن الذين يغضون أصواتهم...) (الحجرات : 3). فهكذا تتجاوب السماء معهم رفة كما تتجاوب معهم زجرًا لتصللهم صقلاً كريمًا، وتطهرهم من كل ما يمس الذوق الرقيع أو يصدم الشعور النبيل) (10).

وهكذا يتضح لنا الأثر البناء الذي تتركه القيم التربوية الإسلامية في الشخصية الإسلامية الإنسانية، بحيث تصوغها صياغة ربانية تمس كل موطن من مواطنها، وتهز كل وتر من أوتارها، لينخرط الإنسان بكل كيانه وطاقاته في رفع البناء الذي أمره الله برفعه، على هدى من الله.

(ب) أثر القيم التربوية في بناء المجتمع والحضارة:

لقد رأينا في المحور السابق كيف أن القيم التربوية الإسلامية قد صنعت من الأفراد الذين تشبعوا بها كائنات فذة، تحمل من عناصر القوة والحيوية ما استطاعوا بفضله أن يواجهوا تبعات الحياة ومشاق السير في دروبها الوعرة... فإذا كان المجتمع ليس في حقيقته سوى مجموعة الأفراد الذين يتألف منهم، فمعنى ذلك أننا بإزاء مجتمع متماسك البنيان، راسخ الأركان، سائر إلى الأمام، مضطرد النمو، لأن الإسلام يعتمد في بنائه للمجتمع على أفراد أقوياء النفوس ممتلئين بالعزم والقدرة على الثبات. فكلما كان الطابع الغالب على المجتمع طابع هؤلاء الأفراد الأفذاذ، كلما كانت شبكته الاجتماعية شبكة متينة الإحكام. ومن هنا نخلص إلى الحقيقة التي يقررها القرآن في قضية التغيير الحضاري، وهي أن الإنسان هو الأساس في ذلك التغيير، مصداقا لقوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الرعد : 11).. فسنة البناء والتغيير تمر من خلال جهد البشر وتفاعلاتهم. وحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرالجسد بالسهر والحمى) (11). هذا الحديث يعرض لنا صورة المجتمع الإسلامي في غاية التضامن والترابط والتساند، حتى لكأنهم كالجسد الواحد الذي يتأثر مجموعه بتأثر أي عضو فيه.

وحتى لا يصيب التخلخل ذلك البنيان، فإن هناك جهازًا دقيقًا يحرسه داخل كل فرد مسلم، إنه جهاز المحاسبة للنفس.. هناك النفس اللوامة التي أقسم بها العزيز الجبار، لعلوها وعظم شانها، ولضرورتها في استمرار الحياة سليمة، واستمرار مجراها هادئا صافيًا من الأكدار.. فالكدورات التي ترين على المجتمع وتهز بناءه، إنما مصدرها النفوس التي تأصلت فيها أدواء الأنانية والأثرة، والكذب والحسد والخيانة.. فإذا ما خلصت النفوس من تلك العلل والأمراض، فإن أفراد المجتمع يكونون متعاونين على البر والتقوى، أي على كل ما تصلح به الحياة وتسعد به النفوس، من جلب للمصالح والمنافع والخيرات التي تخدم المجتمع في حركته نحو تحقيق أهدافه.. فسياسة الأمة وتسيير دواليبها وأجهزتها في ميادين التعليم والقضاء والزراعة والتجارة والصناعة، لا مفر لها من الاعتماد على رصيد القيم التربوية. إن المجتمع المسلم لا يتألف من أفراد منقوقعين على أنفسهم، مستغرقين في ذواتهم، لأنهم يدركون أن ذلك يتنافى مع الغاية من الوجود التي لا تتحقق بغير التعاون واستشعار أصرة الأخوة. لقد حدد الإسلام العلاقات بين أفراد المجتمع، وأرسى قواعدها بإحكام، بحيث تؤدي إلى أمن المجتمع واستقراره وطمأنينته.

ويمكننا أن نقول: إن كل الآداب والأخلاق والتشريعات التي جاءت في القرآن الكريم ذات صبغة اجتماعية واضحة، وإن الهدف منها تنظيم الحياة في المجتمع الإسلامي على أساس مبادئ العدل والمساواة والحق التي جاء بها الإسلام(12). إن مجتمعًا تسري في أوصاله مثل تلك القيم، لا يمكن أن يتسرب إليه الوهن والاختلال، لأن أفراده لا يكتفون بالوقوف عند حدودهم، فذلك حد أدنى، بل إنهم ليتجاوزون ذلك إلى تقديم العون إلى بعضهم بعضًا، وتفريج كرب بعضهم بعضًا، عملاً بما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة) (13).

والحقيقة التي ينبغي أن تظل حاضرة في الأذهان، هي أن المنهج التربوي الإسلامي كيان مترابط الأجزاء، تتشابك فيه العقيدة مع العبادات، وهذه مع الأخلاق، والكل يعطينا تلك الثمرة الطيبة التي هي الإنسان المسلم، وبالنتيجة المجتمع الإسلامي الفاضل. وعلى سبيل المثال، فالصلاة هي إحدى الوسائل التي يجسد بها المسلم قيمة العبودية لله عز وجل، يرغب الإسلام في إقامتها مع الجماعة ويرفع درجاتها إلى سبع وعشرين درجة، تأكيدًا لروابط المسلمين وتعزيزًا للتعارف فيما بينهم.. والزكاة عبادة اجتماعية، لا يخفى دورها في دعم بنيان المجتمع الاجتماعي والاقتصادي، من خلال ما تزود به بيت مال المسلمين، ومن خلال معاني المحبة والتكافل التي تشيعها بين الأغنياء والفقراء، وقس على ذلك بقية الفرائض.

وإذا كان نظام القيم الإسلامي له ذلك الأثر العظيم في بناء الشخصية والمجتمع، فمن الطبيعي أن يكون له أثره في البناء الحضاري الشامل، وأساس ذلك النظام القيمي الإسلامي يستأصل نزعات الشر من النفوس، المتمثلة في الظلم والجبروت والتسلط على رقاب الناس والسعي إلى استعبادهم وإذلالهم لإشباع النزوات الفردية المريضة.

مساجد الإسلام .. في كل مكان

مسجد باريس الكبير بفرنسا

مسجد باريس الكبير من أكبر مساجد فرنسا، شيّد من قبل مهاجري شمال أفريقيا الأوائل في فرنسا، الذين كان أغلبهم من الجزائريين، تكريما للجنود المسلمين الذين دافعوا عن فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، بتمويل فرنسي، حيث خصصت فرنسا 500.000 فرنك فرنسي، وساهم سلطان المغرب في إنشاء وقف إسلامي لإنهاء البناء، ساهم فيه كذلك باي تونس ومسؤولين جزائريين. ودشن في يوم 15 يوليو 1926 من طرف الرئيس الفرنسي آنذاك دومارغ والسلطان المغربي مولاي يوسف بن الحسن.

لحضور تدشين مسجد باريس في صيف عام 1344هـ - 1926م تم دعوة العديد من الأعلام المغاربة، يتقدمهم السلطان يوسف بن الحسن، وأحمد سكيرج، الذي خطب وصلى بالناس في أول جمعة بالجامع، وباشا مدينة الجديدة علال القاسمي، والقائد حمو العزيزي، والقائد محمد بن الشريف السايسي الأمغاري، والأديب سيدي الفاطمي بن سليمان وغيرهم وتم تعيين سنة 1930 الشيخ محمد بلحسن الدباغ إماما وخطيبا لمسجد باريس باقتراح من التهامي الكلاوي وكان يعقد به مجالس علمية.

تعاقب على رئاسة المسجد عدة شخصيات، بداية من قدور بن غبريت، من مؤسسي مسجد باريس، وأول مدير له من سنة 1922م حتى سنة 1954م، ويوجد قبره خلف حديقة مسجد باريس. وخلال الحرب العالمية الثانية أوى المسجد حوالي 1600 من اليهود الفارين من النازيين ، فقدم الحماية لهم. بعد وفاة قدور بن غبريت، خلفه ابن أخيه أحمد بن غبريت بين 1954م- 1956م، في فترة شهدت استقلال كل من تونس والمغرب. تزامن ذلك مع تعيين حمزة بوبكر عميدا لمعهد ومسجد باريس من سنة 1957م حتى سنة 1982م. ثم خلفه عباس بن الشيخ الحسين، الذي تولى الرآسة بين -1982 1989م وقام خلالها بإصلاحات في المسجد. وخلفه تيجاني هدام التي ترأس المسجد بين 1989 - 1992م، وهو طبيب عمل قبل وبعد رئاسته للمعهد في مناصب سياسية في الجزائر، ثم خلفه العميد الحالي الطبيب الذي تولى أول رئاسة للمجلس الفرنسي للديانة المسلمة الجهة الممثلة دينيًا للمسلمين لدى السلطات الفرنسية.

مواقف من حياة الإمام الشافعي

قال المزني : كنت مع الشافعي في الجامع، إذ دخل رجل يدور على النيام الذين ينامون في المسجد، فقال الشافعي للربيع : قم فقل له: ذهب لك عبد أسود مصاب بإحدى عينيه؟

قال الربيع : فقمت إليه فقلت له، فقال: نعم. فقلت: تعال، فجاء إلى الشافعي ، فقال: أين عبدي؟ فقال الشافعي: تجده في الحبس، فذهب الرجل فوجده في الحبس.

1 - قال المزني : فقلت للشافعي : أخبرنا فقد حيرتنا، قال: نعم. رأيت رجلا دخل من باب المسجد يدور بين النيام، فقلت: يطلب هاربا، ورأيته يجيء إلى السود دون البيض، فقلت: هرب له عبد أسود، ورأيته يجيء ليرى العين اليسرى، فقلت: مصاب بإحدى عينيه، قلت: فما يدريك أنه في الحبس، فقال: هذا هو الغالب، أي: أنهم إذا جاعوا سرقوا، وإذا شبعوا أفسدوا، فتأولت أنه قد فعل شيئا في ذلك، مادام أنه هارب يبحث عن شيء، فقد سرق وأنه في السجن.

-2كان السبب في اتجاه الشافعي من الشعر والأدب إلى الفقه أنه كان ذات مرة يسير على دابة، فتمثل ببيت من الشعر، فقال له كاتب كان لوالد مصعب بن عبد الله الزبيري : مثلك يذهب بمروءته في هذا! أين أنت من الفقه؟ -قال له: إن هذا يذهب بمروءتك، تعلم الفقه -فهزته هذه الكلمات- وبعدها قصد الشافعي رحمه الله مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة فلازمه، ثم قدم المدينة على الإمام مالك رحمه الله تعالى، ودرس الموطأ عنده.

-3كان للشافعي -رحمه الله- كرم وعزة نفس، ما كان يأخذ من الناس ويسأل، أفلست ثلاث مرات، فكنت أبيع قليلي وكثيري، حتى حلي ابنتي وزوجتي، ولم أستدن قط، ما مد يده إلى الناس ولا طلب شيئا، وقال الربيع: رأيت الشافعي ركب حمارا، فمر على سوق الحذائين، فسقط سوطه من يده، فوثب غلام من الحذائين فمسح السوط بكمه وناوله إياه، فقال الشافعي لغلامه: ادفع تلك الدنانير التي معك لهذا الفتى، قال: لا أدري إن كانت تسعة أو سبعة، أي: أنه حتى لو أن واحدا ناوله شيئا لابد أن يكافئه، حتى لا يكون لأحد عليه منّة.